

التبشير بالمسيحية في تونس

- الجزء الأول -

الدكتور نصر الجويلي

يعتبر الصراع بين المسيحية والإسلام من أكبر الصراعات التي دامت منذ ظهور الإسلام إلى الآن، والسبب راجع إلى أن كلا من أتباع الديانتين يرى أنه على الطريق الصحيح، وهو الأولى بالبقاء والاستمرار. وليس الغاية من هذا البحث تتبع الصراع الذي استمر طويلا بين أتباع هاتين الديانتين وأيهما أصح عقائديا، وإنما الهدف هو تتبع المحاولات التي قام بها المسيحيون وخاصة المبشرون الفرنسيون بالذات للاشتراك في إعادة نشر المسيحية في البلاد العربية عموما والشمال الإفريقي خصوصا، لأن الناظر في هذا الصراع يتبين له أنه صراع عقائدي في ظاهره ولكنه في الحقيقة كان صراعا حضاريا بالدرجة الأولى، فعندما استطاع المسلمون الاستيلاء على بلاد الأندلس ونشر الإسلام في ربوعها، بدأ الأوروبيون يفكرون في إعادة الكرة على الدول والشعوب الإسلامية، فكانت الحروب الصليبية التي كان الهدف منها الاستيلاء على البلاد الإسلامية واسترجاع مجد المسيحية بشتى الطرق وكان التبشير إحدى وسائل الأوروبيين المسيحيين، ومن هنا فإن موضوع التبشير⁽¹⁾ في تونس يكتسي أهمية

(1) ورد في الموسوعة الكاثوليكية التبشير بمعنى «عمل كنيسيّ لتوسيع آفاق الإشعاع المسيحي واستجابة لرغبة المسيح

Dictionnaire de Théologie Catalogique X.2 partie (Mes my) A. Vacante E. Momgeot.

بالغة خاصة في هذه الفترة التي ندرسها، ذلك أن عمل المبشرين قد ارتبط أساسا بقضية الاحتلال الفرنسي لهذه البلاد خاصة ولبلدان المغرب العربي عامة، لأن المقاصد والوسائل كانت واحدة وهي لا تخرج في جملتها عن :

1 - القضاء على المقومات الشخصية للأمة الإسلامية من عقيدة ولغة وتاريخ وحضارة وذلك قصد السيطرة على البلاد الإسلامية مهما كان موقعها الجغرافي وقوتها البشرية.

وقد عبّر عن هذا المقصد «لورانس براون. حينما قال : «إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا وأمكن أن يُصبحوا أيضا نعمة له. أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير،⁽²⁾. وهذا الموقف النهائي للمسلمين القصد منه القضاء على وحدتهم وزرع الشك بينهم.

2 - إن محاولة السيطرة على هذه البلاد إنما تعود أساسا وبالدرجة الأولى إلى العداوة المفتعلة بين الإسلام والمسيحية التي اختلقها المسيحيون اختلاقا، في حين أن الإسلام لم يكن في يوم ما عدوا لأيّ ديانة سماوية بما في ذلك المسيحية. لأن الإسلام جاء بما جاء به المسيح من عند الله، ويعتبر أن الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام هو حق وأنه هدى ونور

3 - الهزيمة التي حلت بهم على يد الفاتحين المسلمين، ولا سبيل إلى استرجاع هذا الحق الضائع حسب رأيهم إلا بالسيطرة الاستعمارية، وعندما نجحت الجيوش الفرنسية في بسط نفوذها على البلاد التونسية صرح الكاردنال - لافيغري - قائلا : «بأن ذلك قد أكسب الكنيسة عدم إعلان

(2) فروخ (عمر) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، بيروت ط5، 1973.

حرب دينية،⁽³⁾. وهم يعتبرون أن الغزو العسكري أكبر انتصارا لهم لأن إبقاء الإسلام ينتشر بالسرعة المعهودة في شمال إفريقيا خطر عليهم، ومن هنا كان اتفاق المبشرين ورجال السياسة على أن لا هدنة مع الإسلام والمسلمين.

أما الحضور المسيحي بتونس فإنه يرجع إلى القرن السابع عشر حينما استقر جماعة (إخوان المذهب المسيحي) بالعاصمة وبعض مدن البلاد للتبشير بالمسيحية في الجاليات الأجنبية إلا أن نشاطهم كان محدودا جدا⁽⁴⁾، وكان هؤلاء المسيحيون ومبشروهم يتمتعون بكل الضمانات والرعاية، وسمح لهم بممارسة عقائدهم في كنف الحرية التامة كما كان هؤلاء الأرقاء منهم يؤمون كنائسهم أي وقت أرادوا. وكانوا يتكاثرون خاصة في عيدي الميلاد والفصح،⁽⁵⁾.

ولكن هذا الحضور المسيحي قد تدغم عقب احتلال فرنسا بلاد الجزائر سنة 1830 حيث استغلت فرنسا هذا الحدث كي تبسط نفوذها السياسي والديني على الشمال الإفريقي، لذلك سعى الحاكم العام بالجزائر - مكماهون - إلى تركيز المسيحية بالبلاد التونسية، وقد مهد إلى عمله هذا بالطلب الذي تقدم به إلى حسين بن علي قصد التنازل لفائدة فرنسا عن ربوة «بيرصا»⁽⁶⁾، لإنشاء معبد تخليدا لذكرى لويس التاسع عشر المتوفى في هذا المكان. واستجاب الباي لهذا الطلب دون التأمل في عواقبه وما ينطوي عليه من أبعاد خطيرة تهدد المسلمين في عقيدتهم. والواقع أن تلبية هذا الطلب قد فتح الباب بسهولة في وجه الحضور

(3) المجلة التاريخية المغربية ع 3 - 1975، دور المبشرين في شر المسيحية بتونس بقلم الدكتور عبد الجليل التميمي.

(4) حوليات الجامعة التونسية ع 8 - 1971، الدكتور عبد المجيد الشرفي الحركة التبشيرية في تونس.

(5) الإمام (د. رشاد) سياسة حمودة باشا ص 327.

(6) بيرصا : ضاحية من ضواحي تونس الشمالية.

المسيحي بتونس، كما أن هذا التنازل يعدّ في الواقع اعترافا صريحا بالوجود المسيحي، وهو الذي جعل من هذا المكان أرضا مسيحية تعود بالنظر إلى الإدارة الفرنسية.

وقد استغلّ المسيحيّون، وخاصة المبشّرون منهم، هذا الاعتراف والدعم في مباشرة نشاطهم الديني المتمثّل في انتشار الرهبان بالبلاد التونسية، لجلب الأنصار والدعاية إلى المسيحية لتنفيذ برامجهم الرامية أساسا إلى تنصير الشعب التونسي المسلم.

كما استغلت الكنيسة هذا الحضور سواء في الجزائر أو تونس فعملت على تنفيذ مخططاتها التبشيرية بدءا بمحاولة كتابة تاريخ الكنيسة الإفريقية (7) والعودة إلى العهد الروماني والبيزنطي، كي تعطي رسالتها بعدا تاريخيا يعود إلى قرون بعيدة.

ومن الرهبان الذين كرّسوا جهودهم لكتابة تاريخ الكنيسة الإفريقية الراهب ج. مسناج Jean Mesnage بمّا ساعد الكنيسة على تكثيف نشاطها في هذه المنطقة وذلك ببعث الإرسالية التبشيرية، التي ستكون على اتصال كبير بالسكان لمعرفة عقائدهم وأسس ديانتهم حتّى يمكن لهم اتباع السبل الناجعة لتحقيق أهدافهم وقد جاء قانون الأبرشية الصادر سنة 1849 ناصا في إحدى بنوده على أنّه «لا ينسى الرهبان رسالتهم الأصلية لدى الأهالي، أي تنصيرهم عندما تحين الفرصة. ولذا يجب عليهم تعلم العربية والقرآن ودراسة عادات الأهالي وتقاليدهم حتّى يتمكنوا من اطلاعهم على الجانب الغلط والأخلاقي في عقيدتهم» (8).

ومن الرهبان الذين عملوا على ترويج المسيحية في تونس - فرنسوا بورغاد (1806 - 1866) عن طريق تأسيس مدرسة ومعهد سان لوي - ومستشفى ومطبعة حجرية، وتأليفه لكتاب حول قضايا

(7) الجنحاني (د. الحبيب) من قضايا الفكر، ط. الشركة التونسية للتوزيع ص 135.

(8) نفس المرجع ص 136.

الأديان ليصل في النهاية إلى تفضيل المسيحية على الإسلام والدعوة إلى اعتناقها، وكذلك تأسيسه سنة 1847 جمعية - سان لوي - هدفها العمل على نشر الحضارة المسيحية بين المسلمين عن طريق مؤلفات مكتوبة باللغة العربية أو مترجمة إليها.

وحتى يكون لعمل - بورغاد - الشرعية القانونية وجه رسالة إلى المشير أحمد باي عن طريق السفارة الفرنسية جاء فيها :

«إن كل البعثات التبشيرية التي وصلت إلى تونس وجدت بالقرب منكم مودة وحسن استقبال، وقدّمتم لها الحماية النافعة، وقد نسي النصراني في ظل حكمكم التأثير بأنهم يعيشون فوق أرض أجنبية استطاع الرهبان أن يعملوا في هدوء ففتحو المدارس والمعاهد والمستشفيات»⁽⁹⁾.
وقد توخّى بورغاد هذا الأسلوب العاطفي لأنه يرى أنّ طريقة الإطراء هي التي تجذ أذاناً صاغية لدى العرب المسلمين يقول :

«ارفعوا معنوياتهم، امدحوا كبراءهم. تلك هي وسيلة ناجعة، فإضفاء الذكاء على الناس يجعلهم أكثر شجاعة وتحضراً وسماحة واستجابة أكثر من غيرهم، فحتى تكون لهم قابلية واستعداد لقبول آراء الغير، على المبشّر أن يحترم في الظاهر جميع عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية حتى يتوصل إلى بثّ آرائه إلى من يصغي إليه»⁽¹⁰⁾.

ومن المبشرين الذين لعبوا دوراً كبيراً في إرساء المسيحية في تونس الأب - لافيغري - الذي كان يرى نشر المسيحية ركناً أساسياً في تثبيت قدم الاستعمار الفرنسي، وأنّ ما تهدف إليه السياسة الاستعمارية هو عينه الذي تبغيه الكنيسة المسيحية، فقد كتب إلى رهبان الجزائر يوم 5 ماي 1867 قائلاً : «سأتيكم إخواني الأعزّاء في ساعة مشهورة في تاريخ إفريقيا المسيحية ... الكنيسة وفرنسا متحدتان لإحياء أمجاد الماضي».

Bourgade : Maison de la longue phénicienne, Tunis 1956, p. 126. (9)

(10) فروغ (عبر) نفس المرجع ص 186.

لذلك كان دخوله تونس لهذا الغرض باعتباره الوارث الوحيد
لكرسي القديس - سيريان - يقول : «كنيسة تونس في كنيسة قرطاج إلّا
أنّ قرطاج في مهد المسيحية في إفريقيا، وفيها كرسي الجاثليق المشرف
على سبعمائة كنيسة أسقفية وهي مدينة العديد من الشهداء والعلماء
المعروفين والعداوى المقدسات ... إنها مدينة تلك المجامع الشهيرة التي كانت
مدة طويلة نور العالم المسيحي»⁽¹¹⁾.

وقد لعب - لافيغري - دورا كبيرا في سبيل إرساء الاستعمار
الفرنسي بتونس باسم المسيحية، يقول «إنّ فرنسا اليوم غسّلت وجه
أوروبا من العار وإنّ عليها، ليس فقط استغلال أكبر الثروات الاقتصادية
التونسية، بل عليها أيضا غرس الحقيقة المسيحية وعليها أن تعمل على
إنشاء شعب حر مسيحي»⁽¹²⁾. لهذا لم تبخل الحكومة الفرنسية بمدّ يد
المساعدة إلى المبشرين خاصة بعد ما عرفت أنّهم آلة طيّعة لخدمة النفوذ
الأجنبي في البلاد الإسلامية ومنها تونس بالخصوص. وبدأت تحمي
إرسالياتها وتقوم بالدعاية إليها في الأوساط التونسية لأن ما يجمع بين
الاستعمار والتبشير هو العمل على توهين القيم الإسلامية، وإضعاف الأمة
الإسلامية والقضاء تدريجيا على كل مقوماتها الدينية والوطنية، وذلك
بهدف تحقيق قطع العلاقة بين أبناء الشعوب العربية المسلمة والقضاء على
وحدتهم الدينية والوطنية.

ومن هنا نلاحظ أنّ الاستعمار والكنيسة قد تعاونا على إضعاف
الوحدة الإسلامية وزرع بذور الشك في نفوس المسلمين لأنهما يعتبران أنّ
العقيدة الدينية هي التي ستحول بينهم وبين أغراضهم الدينية والسياسية.

وإنّ العقيدة الإسلامية هي التي كانت حائلا دون انتشار المسيحية في
وقت ما، يقول المستشرق الألماني بيكر «إنّ هناك عداء من النصرانية

(11) الحوليات نفس العدد ص 151.

(12) V. Guerina nouvelle église d'Afrique, Tunis, 1930, p. 238.

للإسلام بسبب أنّ الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سدّا منيعا في وجه انتشار النصرانية، الوسيلة الوحيدة لإقرار الاحتلال وبذلك أصبح لسياسة الاحتلال عنصر جديد واصطبغ الاستعمار بلون لم يكن له من قبل،⁽¹³⁾.

كما لا ننسى أنّ سعي المبشرين في تنصير المسلمين بتونس إنّما هو بسبب خوفهم من قيام مجموعات وطنية رافضة للاستعمار، توصل الباب أمام كل حركة تنصيرية. لذلك فإنّه لا سبيل إلى إبقاء الإستعمار في نظرهم إلّا بالقضاء على الوازع الديني في نفوس المسلمين، وإلى هذا يشير الراهب - دوفوكو - بقوله : أعتقد أنّه إذا لم يتمّ تنصير السكان المسلمين في مستعمراتنا بشمال إفريقيا فإنّ حركة وطنية ستقوم بها على غرار ما حدث بتركيا. وإنّ نخبة من المثقفين ستكون بالمدن الكبرى متأثرة بالفكر الفرنسي دون أن يكون لها إحساس الفرنسيين ولا طيبوبتهم،⁽¹⁴⁾.

نشاط الكنيسة بتونس زمن الحماية :

لقد نشط رجال الكنيسة في تونس نشاطا كبيرا تمثّل في تحريض الدّولة الفرنسية على تنصير أهالي إفريقيا الشمالية، إذا شاءت أن يدوم نفوذها وترسخ قدمها في هذه الأقطار. وقد كان الراهب «يونس» هو الذي يقوم بهذه الدعاية وهذه المساعي، وذلك في خطاب ألقاه بمدينة سوسة في شهر فيفري 1930، وقد ضمن هذا الخطاب في كتاب سمّاه «الكنيسة الجديدة بإفريقيا» فيه دعوة إلى حمل الأهالي المسلمين بشمال إفريقيا على اعتناق المذهب الكاثوليكي،⁽¹⁵⁾.

وكان يلحّ مرار على الدول الفرنسية لتمدّد يد المساعدة إلى الكنيسة، وذلك بتأسيس قرى ومراكز فلاحية تؤوي أيتاما وأطفالا من أبناء

(13) محي الدين القليبي ظاهرة مربية، المجلة التاريخية المغربية أكتوبر 1980، ص 272.

(14) علّال الفاسي، التبشير : الهلال عدد أكتوبر 1973، ص 62.

(15) الزهرة : 25 أفريل 1930، نشاط الكنيسة الكاثوليكية.

الأهالي المهملين الذين تجري عليهم الطقوس الدينية، وهذا المشروع في حقيقته يشبه إلى حد بعيد مشروع - لافيجري - الذي تمثّل في تأسيس دار لليتامى واللقطاء، وجمعهم والإرسال بهم إلى سان جوزاف دو تيبّار⁽¹⁶⁾، وما كان يعتمد إليه أيضا عندما كان بقرطاج من جمع لقطاع تونس وإرسالهم إلى الحراش بالجزائر، حيث يتلقون هناك التعاليم المسيحية ليشتبوا على النصرانية منذ الصغر، فيسهل التأثير عليهم وتكوين جيش منهم يعمل لصالح فرنسا.

وهذا النشاط الذي دأب عليه المبشّرون في تونس، إنّما هو مثال لتركيز الأسس التي سيقوم عليها تنصير المسلمين في هذه المنطقة.

وقد توخّوا طريقة الإحسان إلى الضعفاء والمرضى بالخصوص، وجمع التبرّعات وتوزيعها عليهم، وذلك بدافع الإنسانية وحب التقرب إلى الله حسب دعواهم، في ذلك يقول - لافيجري - :

«إنّني حين أعين الأرمال والأطفال بما أستطيع فإنّما أعين السكان المسلمين لأداء واجبي كإنسان وكمسيحي وكأسقف، وليس لي من طموح سوى أن أظهر مرّة أخرى الخصائص الإلهية لدين يأمر بحب الناس وإسعافهم مهما كانوا، ولو كان ذلك بالمخاطرة بالنفس»⁽¹⁷⁾.

وفي الواقع إنّ هذا التبرير منه لسلوك هذا المسلك غير مقبول، وذلك لما أكّدناه من التعاون القائم بين الكنيسة والحكومة الفرنسية. وأنّ هذا التعاون ليس له أيّ مبرّر سوى القضاء تدريجيا على مسلمي الشمال الإفريقي، والتمهيد لانتشار المسيحية، وقد أكّد هذا - لافيجري - نفسه بقوله : «على المبشرين أن يكونوا بالخصوص مهّدين لانتشار المبادئ المسيحية»⁽¹⁸⁾.

(16) قرية فلاحية بولاية باجة قرب مدينة تبرسق.

(17) حوليات الجامعة التونسية نفس العدد السابق 144 - 145.

(18) نفس المرجع ص 152.

ومن هنا يظهر لنا جلياً أنّ الكنيسة قد غيّرت أساليب سياستها التبشيرية، وأصبحت لا تدعو إلى المسيحية مباشرة حتى لا تصطدم بالرأي العام الإسلامي، واتخذت وسيلة الإحسان والظهور بمظهر المتعاطف مع المحرومين حتى تجدد الدعم والإقبال.

كما تمثّل نشاط الكنيسة في تونس في دعم ثقافة المستعمر والعمل على طمس الثقافة الوطنية، وذلك بإنشاء المدارس التبشيرية في المدن الكبيرة بالخصوص، وقد عوّلت الكنيسة على هذا المشروع لأن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية كما يقول المبشر هنري : «إنّما هو واسطة إلى غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية» (19).

وقد نشط - لافيغيري - نشاطاً ملحوظاً فعمد إلى إنشاء معهد سان لوي بقرطاج سنة 1880، وإنشاء مدارس أخرى بجهات البلاد في كل من بنزرت وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وباجة وجربة، وقد عهد بالتدريس فيها إلى أخوات القديس يوسف كما أنشأ أكبر معهد من طرف الأخوات سيون (Sœurs de soin) بتونس سنة 1882.

وقد ذكر لوي ماشويل (Louis Machuel) أنّه توجد بالبلاد التونسية سنة 1883 أربع وعشرون مدرسة ومعهداً، وأنّ عشرين منها يشرف عليها رجال الدين المسيحيون. أمّا الأربعة الباقية فهي المعهد الصادقي وثلاث مدارس إسرائيلية عهد بالتدريس فيها إلى معلّمين وأساتذة علمانيين (20).

أما نوع التعليم ومحتواه في هذه المدارس فقد جاء ذلك على لسان لافيغيري عندما قال : «إنّني والحق يقال لا أستطيع أن أعلمهم إلّا ما كنت أوّمن به شخصياً، وإنّه من الأفضل أن نحبّ جميع الناس مهما كانت

(19) فروخ (عمر) نفس المرجع ص 66.

(20) Machuel louis : l'enseignement public en Tunisie, Tunis, 1900, p.7.

الجنسية التي ينتسبون إليها عوضا عن قتل المسيحيين الكلاب، وإن فرنسا وأمرائها هم أكبر في نظر الله والناس من تركيا وسلاطينها،⁽²¹⁾.

ومن هنا يمكن أن نعتبر أن حركة لافيغري وأعوانه من رجال الكنيسة كانت من أكبر الحركات الدينية خطرا على البلاد، وأن هذه الحركات ما هي في الواقع إلا حركة صليبية جديدة تستهدف بالدرجة الأولى الإسلام والشعوب الإسلامية، وهذا ما جعل الخلاف يزداد أكثر على مرّ السنين بين الإسلام والمسيحية، وقد استغلّ المبشّرون في تونس هذه الوسيلة في تعليم الناشئة بالخصوص، وذلك لأنّ هؤلاء أطوع للتأثير عليهم من غيرهم من الكبار، ومن رأيهم أن الأطفال يجب أن يحملوا إلى المسيح من قبل بلوغ سن الرشد وقبل أن تأخذ طابعهم الشكل الإسلامي، وفي ذلك تقول المبشرة «أناميليجان» في بعض كتاباتها : «إن المدارس أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي».

وهذا التأثير يستمرّ حتّى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة أوطانهم،⁽²²⁾ وإنّ التأثير المسلّط من طرف المبشّرين على تلاميذهم الصغار في المدارس النصرانية، سوف يتفشّى وينتشر بسهولة داخل أسر هؤلاء الأطفال. وهذا ما يؤكد لنا أن المدارس التبشيرية لم يكن هدفها رفع الأميّة بل العمل على إخراج الناشئة التونسية من بينتها العربية الإسلامية وهو ما عبرت عنه المبشرة «جوزفين»⁽²³⁾ عندما تولت إدارة المدرسة التنصيرية بسوسة بقولها وهي تنطلق من فكرة بورغاد التي تقول : «إنّ التعليم والدين يبدان في فترة مبكرة في نفوس الأطفال وإن العقيدة

M. Gr : Crussenmyr vingt cinq année d'escopaten, France, Alg : 188. T2, p. 434. (21)

(22) مجلة المنهل : نوفمبر 1986 أوضاع المسلمين ووسائل نشر الدعوة بقلم أبي بكر عبد القادر 171.

(23) جوزفين : إحدى المبشرات الفرنسيات عملت كراهبة في مرسيليا ثمّ وقع توجيهها إلى تونس لتقوم بنشر المسيحية ثمّ وجهت إلى سوسة من طرف «فلياري»، واستندت إليها مهمة مراقبة العمل التبشيري في مدن الساحل.

الإسلامية تغرس في نفس الطفل المسلم منذ نعومة أظفاره في المنزل أولاً وفي المدرسة ثانياً فعلينا أن نبدأ من حيث بدأ الإسلام⁽²⁴⁾.

وقد ركز المبشرون في تونس دعوتهم على الاعتناء بالمرأة المسلمة بصفة خاصة وتربيتها تربية دينية مسيحية، لأن بواسطتها سيدخل الدين المسيحي في يوم من الأيام منازل المسلمين. وقد تأكد هذا فيما ورد على لسان المبشرة «مارغريت مايلز» في جريدة «عاملون مع الله» من أن زيارة البيوت العربية لهي فرصة تمكّنا من الإعانة على النصيحة، والعمل لتلك النساء المسلمات الخاضعات لغيرهن المبعديات عن أمور الله، كم تخبّي تلك الديار من شقاء وآلام حيث يسيطر الإسلام. وكم قلوب معذّبة وراء ذلك الحجاب الأبيض الذي نراه يمرّ في الطرقات، والله يعلم ما تحتاجه أخواتنا المسلمات⁽²⁵⁾. ومّا مهّد السبيل للمبشرين للقيام بعملهم التربوي، ما وجدوه عند بعض أعيان المسلمين من الأمراء وأصهارهم من رغبة في تربية أبنائهم تربية كنيسة⁽²⁶⁾.

ولكن كيف كان رد فعل التونسيين من هذه المدارس ؟

بالرجوع إلى الصحف الوطنية الصادرة في ذلك الوقت نجد أن التونسيين كانوا متبرّمين من وجود هذه المدارس، خاصة بعدما تبين لهم الغرض الحقيقي الذي تسعى إليه الكنيسة من وراء القيام بمشاريعها التعليمية بالبلاد التونسية، وخاصة الاهتمام المتزايد بتعليم البنات اللاتي هن أزواج وأمّهات المستقبل. وقد نشرت الصحف عديد المقالات التي يحذّر فيها أصحابها من العاقبة الوخيمة التي ستصيب الأسرة التونسية، لو سلّمت أبناءها وبناتها إلى مدارس المبشرين. وسأورد ما ذكره عبد العزيز الثعالبي في هذا الموضوع مشيراً إلى «أن مدارس الإفرنج التي يفتحونها

D. Annoulet : La pénétration intellectuelle en Tunisie, Paris, 1954, p. 250. (24)

(25) المجلة الزيتونية ج 9 م 5 1945 دور جام ع الزيتونة نحو الدعاية المسيحية.

(26) الزهرة 19 ذي الحجة 1348. حديث أسقف قرطاجنة مع هنري بورديو العضو بالأكاديمية الفرنسية.

بالبلاد الإسلامية يجعلون ضمن أهمّ الشروط لدخولها تعليم التلاميذ ولو كانوا مسلمين الدين المسيحي، ودخولهم في جملة التلاميذ المسيحيين إلى الكنيسة في كل يوم للعبادة وفعلهم معهم الأفعال الدينيّة ومن لا يقبل هذه الشروط لا يقبلونه،⁽²⁷⁾.

ويرى أن هذا الصنيع منهم يعود بالذات إلى ما يتمتعون به من حرية مطلقة في البلاد الإسلامية جعلتهم يفعلون في مدارسهم ما يوافقهم، وبهذه الحرية استطاعوا أن يؤثروا في الطبقات الشعبيّة تأثيرا كبيرا. ويحمل الثعالبي المسلمين مسؤولية عظيمة لأنهم رضوا بإدخال أبنائهم إلى هذه المدارس، إمّا عن جهل بخفايا البشرين وإما جهلا بالحكم الشرعي لأنّ «المسلم الحقيقي لا يدخل ولده المدخل الخطير».

ومقاومة الثعالبي لهذه المدارس إنّما تعود إلى ثقافته الإسلامية بالدرجة الأولى التي جعلها منطلقا لمقاومة التبشير، وهذا ما جعله يقرر أنّ الحكم الشرعي ينافي دخول المسلم المدارس المسيحيّة، معتمدا في ذلك على ما أورده القاضي عياض في الشفاء من أن كل فعل يقوم به المسلم ولا يصدر إلّا عن كافر كالسجود للصنم أو الشمس أو القمر أو الصليب أو النار، والسعي إلى الكنائس والبيع مع أهلها والتزيّي بزيّهم يعتبر كافرا لأنّ هذه الأفعال علامة على الكفر وإن صرّح فاعلها بالإسلام.

وبعد ما ساق الثعالبي هذا الدليل قرر أنّه «لم يبق عذر لن يدعي الجهل في ذلك من المسلمين، فإذا أبقي واحد منهم بعد هذا ولده في تلك المدارس وأمثالها فما هو إلّا من فقد اليقين وعدم المبالاة بأمر الدين».

ولم يكتف الثعالبي بتحذير الأولياء من الوقوع في هذا المحذور، وإنّما نبّه الحكومة التونسيّة والحكومات الإسلامية إلى الخطر الذي يهدّد المسلمين، وناشدها «إخراج أولئك المساكين رغما عن أوليائهم الذين هم

(27) سبيل الرشاد : 1896/3/22 حديث الجزويت بقلم عبد العزيز الثعالبي.

أصل بلانهم ووضعهم في مدارسها الكافلة بتعليمهم وتهذيبهم، مع السلامة من كل محذور خدمة للدولة والدين،⁽²⁸⁾.

وهذا ما جعل الكثير من التونسيين يبادرون بسحب أبنائهم وبناتهم من هذه المدارس، بعدما أدركوا أنها وسيلة لإدخال الزيغ والعبث بمكونات الضمان تحت ستار التربية والتهذيب.

كما أن كثيرا من المسلمين الذين كانوا يعلمون بناتهم الصناعات بمدارس الراهبات (الأخوات)، تفتنوا وعزموا على إخراجهن كلهن عن بكرة أبيهنّ حالا دون تأخير، ذلك لأنّ أباهنّ كانوا يحسبون أنّ التعليم بتلك المدارس صناعي بحت، فلما شعروا بأن وراء الأكمة ما وراءها عاد إليهم صوابهم ورجعوا إلى رشدهم فتداركوا الهفوات قبل فوات الأوقات،⁽²⁹⁾.

كما كان لموقف الصحف الوطنية تجاه هذه المدارس، أثرها العميق في تبصير الرأي العام بحقيقة الأمور بحيث ما فتئت هذه الصحف تنبّه المواطنين إلى الخطر الذي يهددهم في أبنائهم وبناتهم، وتعتبر أنّه «من الجرم أن يدفع الأب بابنته بيده لمن هو يعلم أنّها حريصة على بثّ تعاليم دينها في صدر الغير، كلّما وجدت إلى ذلك سبيلا،⁽³⁰⁾. لأنّ كل تعليم وكل مصلحة دنيوية مهما كانت رفيعة، لتتضاءل إذا كان فداؤها الزيغ وتلاشي العقيدة وتسرب الانفكاك بواسطة المرأة لعرى العائلة الإسلامية. كما نبّهت الصحف الوطنية إلى المشاريع الخيرية التي تقوم بها الكنيسة، وما تخفيه وراءها من مقاصد تبشيرية عبّر عنها رجال الدين المسيحيون بكل صراحة، يظهر ذلك من خلال المقدمة التي كتبها أسقف قرطاج لكتاب الكنيسة الجديدة بإفريقية، والتي جاء فيها «إنّ ما كتبتموه من شأنه أن ينير الفكر العام ويحمل القلوب أكثر من ذي قبل على العناية بالأمة

(28) سبيل الرشاد : نفس العدد.

(29) الوزير 1930/5/29 المؤتمر الكاتوليكي.

(30) المجلة التاريخية المغربية : نفس العدد ص 292.

الإسلامية العزيزة علينا وبمراضها وأبنائها ولا سيما بيناتها اللاتي هن أزواج وأمّهات الغد.

وإني لأودّ شخصياً أن يتهياً لي توجيه ممرّضة مخلصة ومبشرة لكل قبيلة وراهبة مثقفة ومفعمة بالإنارة والصبر لكل قرية من قرى الإيالة،⁽³¹⁾.

وكان لهذه المقالات صداها البعيد في نفوس التونسيين بما شجّعهم على التخلّي عن هذه المدارس، وفي هذا تقول جريدة النديم : «سحب بعض الآباء في المرسى وغيرها بناتهم من مدارس الراهبات وهم يقولون : «ما كنّا نحسب أن في الأمر ضرراً لولا أن الجرائد نبّهتنا إلى ما في الزوايا من الخبايا وما في الرؤوس من المقاصد والنوايا،⁽³²⁾.

إلا أن هذه المواقف كانت من العائلات المنحدرة من أوساط شعبية وخاصة منها التي عانت ويلات الاستعمار وتضررت منه. أما العائلات الموسرة المتأثرة بالمدنية الغربية وسلوك الفرنسيين في عاداتهم وتقاليدهم، فإنّها أبقت على بناتها بهذه المدارس وهذه الفئة هي التي نعتتها جريدة الزهرة بقولها : «ولم يبق اليوم في تلك المدارس من بنات المسلمين إلاّ بنات صنفين، صنف لا يعلّق على هذا الأمر أهمية فوق الحدّ، ولا يريد أن يشغله كثيراً بما يقوله الناس عن مدارس الراهبات، وما ينسبونه لها من السعي في التنصير والتبشير بالإنجيل،⁽³³⁾. ولعل ما طمأن بعض العائلات على بناتهن في هذه المدارس ما أذاعته الراهبات من أن البنات المسلمات لا يشاركن في إقامة الصلوات المسيحية، ولا يحضرن مطلقاً الشعائر والطقوس الدينية مما جعل البعض يعتبرون بهذه التبريرات ويبعثون بأبنائهم إلى المدارس التبشيرية، على نيّة أن أساتذتها لا يعمدون إلى تلقين أبناء المسلمين ديناً لا يدين به آبائهم. لكن بمرور الزمن تبين

(31) المجلة التاريخية المغربية، نفس العدد ص 29.

(32) نفس المرجع ص 293.

(33) الزهر، ع 6 محرم 1349 هـ.

لهؤلاء الأسر كيف يعمل الرهبان على التأثير على أبنائهم بطريقة غير مباشرة، وأحسّوا بهذا أكثر «حينما بعثت إدارة المدارس إلى أولياء تلاميذها المسلمين تستأذنهم في إدماج فلذات أكبادهم في زمرة رفقاءهم الكاتوليكيين»⁽³⁴⁾ حرصا منها على أن يكون التلاميذ مثقفين ثقافة دينية كاتوليكية. وقد صورت جريدة النديم الحالة التي آل إليها أمر الصبيان المسلمين في هذه المدارس. فقد جاء في بعض أعدادها «بكل بسالة وسذاجة سألت غلامة أمّها فقالت : «يا أمي مالي أرى والدي مرة يقف وأخرى ينحني وبعد ذلك ينكبّ على وجهه ثمّ يجلس».

«عجيب سؤالك هذا ؟ ألم تفهمي أن أباك يصلي وتلك هي الصلاة. إذن فلماذا نحن في المكتب نصلي بنمط آخر لا كما أرى أبي يفعل في صلاته»⁽³⁵⁾.

وهذا دليل واضح على ما تكته الكنيسة من العداء لغيرها من الأديان الأخرى المخالفة لها، وخاصة الدين الإسلامي منها بالرغم من التبريرات التي يقدمها رجال الكنيسة والصحف الفرنسية الموالية لهم التي ما انفكت تظهر عمل المبشرين بمظهر الخدمة الإنسانية، من ذلك ما كتبه جريدة «ليكو دي باري» وعربته جريدة الزهرة بما يأتي «إن مجهودات الأخوات البيض قد بلغ من استحسانها والاعتراف بمزيتها أن غدت أكبر العائلات الإسلامية، تنيط تربية أبنائها بعهدة تلك الراهبات. ولقد أتيح لنا أن نشاهد منذ بضعة أيام بدار - لافيجري - قرطاج من بين التلميذات حفيدات سمو البابا وبنات المفتي الأكبر بالديار التونسية»⁽³⁶⁾.

كل هذا ليكون التونسي مطمئنا على بناته وأبنائه في هذه المدارس خاصة وأن مفتي البلاد قد أوكل لها تربية بناته. وقد كذبت الزهرة هذا الخبر واعتبرته من قبيل الدعاية إلى مدارس المبشرين، والافتخار بأنّ

(34) لسان الشعب : 29 أكتوبر 1930 المبشرون ورجال الاستعمار بقلم أبي الفرج.

(35) النديم 17 مارس 1930 (الافتتاحية) بالمناسبة.

(36) الزهرة نفس العدد.

الكنيسة استطاعت بوسائلها المختلفة إغراء العائلات الكبيرة بما فيها عائلة المفتي، الذي يدين له التونسيون بالرعاية والاحترام ليس فقط لمنصبه الديني بل لأخلاقه العالية وفضائله الكاملة (37).

ومن الوسائل الأخرى التي عمدت إليها الكنيسة في تونس محاربة التعليم الإسلامي المتلقى في الكتاتيب وجامع الزيتونة، لأنه يمثل عقبة كبيرة في سبيل نشر المسيحية بتونس. يتضح هذا من خلال تصريحات الراهبة ماريا (maria) عندما قالت : «إن التعليم في جامع الزيتونة عبارة عن مدرسة لاهوتية في العصور المظلمة بأوروبا» (38) ونعته بالفوضى وعدم خضوعه إلى جهاز إداري محكم التنظيم وتغلب عليه الفوضى القرآنية.

كما أن رواد الكنيسة عملوا على سدّ الطريق أمام السكان حتى لا يتصلوا بالفقهاء وحفظ القرآن، وسعوا إلى بناء كنائس في مناطق عديدة من الإيالة التونسية حتى يسهل نشر المسيحية بها.

وهذا ما قوى الإحساس في نفوس المصلحين من وجوب التصدي لظاهرة انتشار المسيحية، وذلك بفتح المدارس القرآنية في مختلف جهات البلاد، معتمدين على الأهالي في تمويلها والتبرّع لخدمتها، ولم تخل جهة من جهات البلاد من الكتاتيب القرآنية، الشيء الذي جعل الكنيسة تشعر بمضايقة كبيرة جداً من هذه المدارس، لأن التربية الإسلامية والتثقيف القرآني الصحيح كفيلاً بردع المسيحية وصيانة أفراد المجتمع التونسي من الانزلاق في المسيحية.

ولقد عبّر لافيغري عن قلقه من انتشار المدارس القرآنية التي ستكون سبباً في إفشال مخططات الكنيسة قائلاً : ... سنبقى مسيحيين كلاباً ما دام هذا الكتاب متواجداً في منطقة شمال إفريقيا..

(37) الزهرة نفس العدد.

Revue africaine : Vision intellectuelle, Tunis : 1954, p. 140. (38)

ومن خلال المواقف الشعبية نلاحظ مدى تأثير العامل الديني في الوسط الاجتماعي بمكوناته، وهذا العمل يندرج ضمن الأهداف التي يرمي إليها دعاة الإصلاح الديني في تونس، ألا وهي المحافظة على العقيدة الإسلامية وحمايتها من كل محاولة ترمي إلى تشويهها وإدخال الزيغ عليها، لأنّ الإصلاح العقيدي لا يعطي أكله إلّا إذا كانت عقيدة المسلم صحيحة وقوية.. تجعله لا ينصاع إلى أيّ محاولة ترمي إلى إبعاده عن حظيرة الإسلام. وهذا ما جعل السياسة التبشيرية تمنى بالفشل للحماس الديني الذي أظهرته كافة الطبقات الاجتماعية، وللمواقف العملية التي وقفها رجال الإصلاح والمتمثلة بالخصوص في :

1 - العمل على تركيز تعليم إسلامي في مختلف مناطق البلاد يكون الهدف منذ توعية المسلم توعية دينيّة صحيحة وتربيته تربية إسلامية متينة.

2 - دعم اللغة العربية، باعتبارها لغة القرآن والوسيلة التي يمكن بها المحافظة على وحدة السكان ليقفوا في وجه اللغات الغازية.

3 - توعية الجماهير الشعبية بشتّى الوسائل، حتّى يكونوا على علم بما تهدف إليه الكنيسة في تونس.

4 - فضح الأغراض الكنيسية في الصحف اليومية والنوادي الأدبية والسياسية. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى الموقف المشرف الذي وقفه بعض أساتذة جامع الزيتونة وطلبته من هذه المحاولات التبشيرية مثل محمّد الشاذلي بن القاضي مدبر مجلّة - المجلة الزيتونة - وذلك من خلال الخطاب الذي ألقاه سنة 1955، أمام الملك محمد الأمين باي الذي أشار فيه إلى محاولات الكنيسة المتكررة الرامية إلى إذاعة المسيحية بين المسلمين، وحملهم على اعتناقها بطريقة غير مباشرة، وذلك من خلال ما تصدره من نشرات تتهمّ فيها على مقام صاحب الرسالة وعلى دينه الخفيف، والتمس من الباي تنفيذ ما التزمت به الحكومة الفرنسية من احترام للدين الإسلامي وعدم السّماح بنشر أيّ رسالة أو مقالة فيها مسّ بدين

المسلمين، وسنّ تشريع يمنع المسلمين من تعليم أبنائهم في مدارس الرهبان والراهبات والتداوي بمستشفياتهم⁽³⁹⁾.

وكذلك الاحتجاج الصادر عن طلبه الجامع الأعظم المرفوع إلى الباي والسيد «بيدو» وزير خارجية فرنسا، والجنرال - ماست - المقيم العام بتونس في خصوص ما جاء بنشرية «عاملون مع الله» التي تصدرها الكنيسة البروتستانتية من تهجّم على الدين الإسلامي، ووصفه بكونه دين العبودية والاسترقاق، وما جاء فيها أيضا من وصف العرب بالتعصّب وحبّ الشرور والإباحية وقسوة الطّباع، وأنهم لا يستطيعون الإقلاع عن الشرّ لتأصله في نفوسهم⁽⁴⁰⁾ وقد حدّر الطلبة من مغبة الرجوع إلى مثل هذا السلوك المشين وهذه الطّعون الموجهة إلى الإسلام والمسلمين، وأن ما أظهره من التّروّي في اتخاذ المواقف إنّما راجع لا إلى الخوف من الإدارة الفرنسية وإنّما إلى «تلك التعاليم السمحة التي استقيناها من ديننا السّمح الكريم»، التي تجبرهم على أن لا يقفوا مواقف الطيش والرّعونة التي وقفها الآخرون لانطوائهم على الحقّ وجهلهم عواقب الأمور.

إلا أنّ هذه الوسائل بالرغم من أهميتها تبقى منقوصة في نظرنا لأنّها لم تتعدّ التنديد الصحفي والخطابات المكتوبة، إذ كان بالإمكان الردّ على المبشّرين بطريقة أكثر من هذه، صنيع ما قام به المشاركة الذين ردّوا على حملات المبشّرين البروتستانت في الهند والشرق الأدنى بعشرات المؤلفات⁽⁴¹⁾.

(39) المجلة الزيتونة : نفس العدد ص 223.

(40) المجلة الزيتونية، نفس العدد ص 225.

(41) حوليات الجامعة التونسية نفس العدد ص 156.

التبشير بالمسيحية في تونس في القرن التاسع عشر - الجزء الثاني -

الدكتور نصر الجويلي

تعرض المؤلف في الجزء الأول من مقاله إلى الحضور المسيحي بتونس ودور الرهبان فيه قبل الحماية، كما يبين الدور الذي لعبه لافيغري في سبيل إرساء الاستعمار الفرنسي باسم المسيحية، ويبين نشاط الكنيسة بتونس زمن الحماية.

وفيما يلي الجزء الثاني من مقاله حول التبشير بالمسيحية في تونس في القرن التاسع عشر.

المؤتمر الافخارستي :

ومن الأنشطة الأخرى التي قامت بها الكنيسة المسيحية بتونس القرار القاضي بإقامة الدورة الثلاثين للمؤتمر الافخارستي ⁽⁴²⁾ بقرطاج من 7 إلى 11 ماي 1930، وكان لهذا المؤتمر خلفيات سياسية واضحة؛ إذ أن

(42) كلمة (الافخارستي) كلمة يونانية الأصل تدل على النعمة والخير والفضل، وقد استعمل المسحيون الأوائل هذه الكلمة كمصطلح للدلالة على سر القربان المقدس، وقد قرر البابا ببيير الحادي عشر، إقامة هذا الدورة بقرطاج. لقد سبق هذا المؤتمر تظاهرة دينية قامت بها الكنيسة الكاثوليكية في تونس سنة 1922 تمثلت في إقامة مؤتمر افخارستي باشرت فيه الكنيسة طقوسها بكل هدوء دام ثلاثة أيام.

انعقاده في هذه السنة يصادف الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، والذكرى الخمسين لاحتلال تونس، بحيث إن هناك علاقة كبيرة بين الاستعمار من ناحية والكنيسة من ناحية أخرى، كما أن الخلفية تظهر أيضا في اختيار مدينة قرطاج مكانا للمؤتمر؛ لأنهم يعتبرونها المدينة الثانية بعد روما التي لعبت دورا هاما وأساسيا في نظر المسيحية، والأهمية التي قامت بها مجامعها الدينية في بلورة المسيحية كمذهب ديني عالمي، الشيء الذي جعل منها أهم المراكز الدينية لرئيس الأساقفة منذ عهد بعيد، والذي يعتبر الشخصية الثانية في المرتبة بعد أسقف روما، وهذا ما جاء على لسان القديس لبون التاسع في الرسالة التي بعث بها إلى الأساقفة الإفريقيين، والتي جاء فيها: «من غير أدنى شك يعد البابا في روما، أول رئيس أساقفة والمطران الأعلى للقارة الإفريقية بأكملها هو أسقف قرطاج. فقد تَحَصَّلَ على هذه الرتبة إلى الأبد من الكرسي الرسولي الروماني ولا يمكن له أن يفقد ذلك لفائدة أي كان من الأساقفة الآخرين وسيحتفظ بهذا الحق إلى آخر الدهر ما بقي على هذه الأرض الإفريقية من ينكر رسم سيدنا المسيح، سواء أكانت قرطاج طريحة ومخربة إذ عرفت في يوم من الأيام مجد الأحياء». وهذا الإحياء هو ماثل لنا اليوم بعد نصف قرن من النشاط لنذوق ثماره الأولى⁽⁴³⁾. كما تعود أهمية قرطاج في نظر المسيحيين إلى كونها مدفن «سان لوي» الذي يعتبر في نظرهم من أعظم رجال الأمة الفرنسية وأبطال تاريخها كما أنه يعتبر عندهم صاحب السلطتين الروحية والزمنية.

كما تظهر الخلفية الأخرى في وقوف الإدارة الفرنسية إلى جانب الكنيسة، ومد يد المساعدة إليها، والعمل على إنجاح هذه التظاهرة الدينية، واستعداد الجيش الفرنسي للدفاع عنها إذا ما أبدى التونسيون معارضة، بما يدل على أن المؤتمر لا يخلو من الصبغة السياسية، وهو ما صرح به

(43) الهداية ع 1 س 14، جوان 1988 المؤتمر الافخارستي بقلم محيي الدين عزوز ص 70

وايضا : Livret : Guide de 3è congrès p. 33.

رئيس الجمهورية الفرنسية في ردّه على مواقف التونسيين بقوله : «إن فرنسا لانكية في بلادها ومسيحية في مستعمراتها».

ومتّما يدلّ على أن هذه الخلفيات كلّها تعمل على ضرب الإسلام وتحدّي شعور المسلمين بتونس ما تفتنت إليه جريدة الوزير «من أن افتتاح مؤتمر الكاتوليكيين بقرطاجنة كان يوم وقوف المسلمين بعرفات، وكان انعقاده لأيام خمسة فقط أي في أيام التشريق بالحج الأكبر، وهي مصادفة غريبة نادرة الوقوع لدرجة التشابه بين الحج والمؤتمر (44)».

ومهما حاول رجال الكنيسة تبرير القيام بهذا المؤتمر في بلد إسلامي معتبرين إياه من الأنشطة التي تندرج ضمن حرية المعتقد، وأنّه عبارة عن تظاهرة دينية يقوم فيها المسيحيون بأنواع من التلاوات والصلوات والذكر والاعتراف وغير ذلك من الأعمال الجماعية (45)، ولا علاقة لها بالتعدي على ديانة المسلمين، فإن الأعمال التي كان يقوم بها الوافدون على قرطاجنة لتدل على ما يخفيه الزائرون وراءهم : إذ «أخذ هؤلاء في توزيع نشرات باللسان العربي يدعون فيها إلى اعتناق المسيحية، ويوزعون على فقراء البادية صلبانا صغيرة من الخشب وأغصانا من الزيتون وخبزا يدعون فيه دم المسيح، وكثيرا ما يطوفون بشكل مظاهرات رافعين أعلام الكنيسة، مترنمين بأناشيد مضمونا أنّهم يسعون لهداية هذه البلاد المسيحية التي كانت عليها من قبل، وأنهم يستعينون بالله على الوصول إلى هذه الغاية (46)».

كما كان الرهبان الإيطاليون يروجون الإشاعات، ويتحدثون إلى المسلمين بأنهم من أصل عربي، وأنهم يرجعون إلى أمة الرومان، وأن العرب الوافدين على البلاد التونسية لم يغيروا شيئا من طباعهم سوى اللباس والمعتقد، وذلك بالرغم عما كان يتظاهر به رجال الدين من أن

(44) الوزير : 3 محرم 1349 هـ / 29 ماي 1930 : صدى المؤتمر الافخارستي.

Livret : Guide de 3è congrès p. 18 (45)

(46) المجلة التاريخية المغربية نفس المرجع ص : 279.

غاية المؤتمر غاية سلمية، وأن دعوة المسيحيين مبنية على المحبة والسلام في هذه الأرض، في حين أن التظاهر بالمحبة لا يصدقه الواقع؛ إذ كثيرا ما عبر رجال الكنيسة عن رغبتهم في تنصير المسلمين، جاء ذلك على لسان أسقف الجزائر بمناسبة الاحتفال النوي لاحتلال فرنسا بهذا القطر وذلك بقوله: «ربما مع مرور الزمان تحصل لنا سعادة تمدينا للأهالي بتنصيرهم مسيحيين» (47).

وقد تأكد هذا في البلاغ الذي نشرته جريدة «لا تنزي فرانساز» (La Tunisie Française) على لسان الكنيسة، والذي جاء فيه «إننا نحرض المسلمين ولا سيما من سيجتمع منهم بقرطاجنة بأن يتהלوا إلى الله تعالى أن يدلي شأن الكنيسة، وأن يفيض أنوار الذهب الإنجيلي على الجموع البشرية المنبثة في نواحي إفريقيا الفسيحة، والذين لا يزالون محرومين إلى الآن من الحقيقة المسيحية، وأن يبادر الأهالي والأجانب بالالتجاء إلى أحضان الكنيسة التي هي أمهم المشفقة عليهم كثيرا» (48).

ومن هنا يمكن أن نعتبر أن المؤتمر الأفخارستي أصبح بحق مظهرا من مظاهر الحملة العدائية التي يقوم بها رجال الكنيسة ضد الإسلام والمسلمين، خاصة بعدما أعلنوا أن هذا المؤتمر ما هو إلا حملة صليبية، وأن الذي حملها على عقده في تونس هو مواصلة الرسالة التي كان يقوم بها كل من لويس التاسع والكردنال - لافيجري - الهادفة أساسا إلى إعادة مجد الصليب.

ومع كل هذا، فإن الصحف الفرنسية وخاصة الموالية منها إلى الكنيسة ما انفكت تدافع عن هذه التظاهرة الدينية، مظهرة كل اعتبار أنها مجرد القيام بشعيرة دينية بين جالية مسيحية، لا علاقة لها إطلاقا بمحاربة

(47) المجلة التاريخية، نفس العدد ص 291 وأيضا: الزهرة 1930/5/5 تنويه الصحافة الأجنبية.

(48) المجلة التاريخية، نفس العدد ص 291 وأيضا: الزهرة 1930 تنويه الصحافة الأجنبية.

الإسلام، وأن «تنصير العرب بواسطة المؤتمر الافخارستي هو اختراع اشتراكي سخيّف» (49).

موقف التونسيين من المؤتمر

إنّ السؤال الذي يبقى مطروحا هو ماذا كان موقف التونسيين من هذه التظاهرة الدينية، هل كان موقفهم التأييد أم الرفض ؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تفرض علينا بيان موقف التونسيين من وجهتين :

- وجهة نظر ومواقف العلماء الذين يمثلون الإسلام الرسمي، ونعني بهم شيخي الإسلام المالكي والحنفي ورجال المجلس الشرعي عموما.

- وجهة نظر وموقف عامة الناس من صحافة وطلبة ومنظمات وطنية. بالرجوع إلى الوثائق الرسمية نلاحظ أن موقف الإسلام الرسمي لم يكن واضحا، فهو لم يتعد مجرد التكذيب من المشاركة في العضوية الشرفية، وأن ما نسب إلى شيخي الإسلام الحنفي (محمد بيرم) والمالكي (الطاهر ابن عاشور) لم يتعد التكذيب، وأن ما نسب إليهما إنما هو من باب التغيرير بالجماهير والتأثير عليهم ؛ لهذا السبب كان رفضهما المشاركة في العضوية «لأنهما أدركا بشاقب فكرهما ما في هذه النسبة من المنافاة لمهتهما الدينية».

وقد كان لهذا الرفض أثره الكبير على بعض المسيحيين الذين تنازلوا عن العضوية ومنهم رئيس الكنيسة البروتستانتية الذي رفض قبول العضوية (50) وقد دافعت جريدة الزهرة عن شيخي الإسلام، إذ برأتهم من التهمة الموجهة إليهما بقبولهما العضوية الشرفية للمؤتمر تحت عنوان - دفع التباس - جاء فيه : «نشرت جريدة - الديبش تونزيان - قائمة في أسماء الذوات الذين قبلوا الإشراف على المؤتمر الافخارستي، قائمة من بين

(49) الزهرة 14 ماي 1930 ضريبة التنصير.

(50) المجلة التاريخية المغربية نفس العدد ص 284.

أفرادها أسماء فضيلتي شيخي الإسلام والباش مفتي المالكي. وبما أن الشيخين المشار إليهما لم يجيبا الدعوة لهذا الغرض المنافي لمنصبهما الديني الإسلامي، فقد وجب التنبيه لذلك دفعا للالتباس ورفعاً للإيهام،⁽⁵¹⁾ لهذا فإن اللجنة التنفيذية للحزب لم تبعث برسائل التخلي عن العضوية الشرفية إلى الشيخين المذكورين، واعتبرت عضويتهم غير حقيقية، إلا أن محيي الدين القليبي يفند تبرؤ الشيخين من العضوية وخاصة شيخ الإسلام، وذلك بقوله :

«والذي نعرفه هو أن ثلاثة من الثقات رَووا لنا أنهم لما ذهبوا إلى أسقف قرطاجنة للمفاهمة معه في جعل حد للمظاهر التي أثارت الخواطر في تونس، وكونت أعضاء الهيئة الشرفية للمؤتمر، انتفض الأسقف لهذه الكلمة قائلا «أنا لم أكن أفكر في أمر شيخ الإسلام، ولا خطر لي ببال وضع اسمه بين أعضاء اللجنة الشرفية، ولكن ورد إليّ منه كتاب يلح عليّ فيه بوضع اسمه ضمن الأعضاء، ويعاتبني على أنني لم أدعه في حفلة تذكّر الكردنال - لافيغري - ويعرض على قسما من مساكنه ليخصه للوافدين من المؤتمر، ولو أنني أخشى أن تزداد النار اضطراما نشرت هذا المكتوب بنصه وصورته، حتى يعرف الناس ما نشرته (الزهرة) على لسان هذا الرجل»⁽⁵²⁾.

ويؤيد القليبي ما قاله الأسقف بسكوت شيخ الإسلام عن الانتقادات الموجهة إليه على صفحات الجرائد الوطنية، وعدم تجاسره على إعلان حقيقة هذه الإشاعات.

هذا في الوقت الذي يجب أن يقف فيه ممثلو الإسلام الرسمي إلى جانب الشعب التونسي للدفاع عن كل ما يتهدهد لأنهم الناطقون بلسانه والمعبرون عن رغباته، وهم الذين وقع انتمائهم على الشريعة، بحيث لا مبرر في رأينا لهذا السكوت، حتى وإن فسّر البعض بحرية المعتقد،

(51) الزهرة 27 أفريل 1930 دفع الالتباس، وأيضاً La Tunisie catholique 27/4/1930.

(52) المجلة التاريخية المغربية نفس العدد ص 298.

والتسامح الديني الذي يبدو لنا أنه غير محله بعد ما ظهر للناس ما يكنه المؤتمرون من عداء للإسلام. ذلك أن هذا التسامح المبالغ فيه هو الذي مهد السبيل إلى تكثيف نشاط المبشرين منذ ولاية المشير أحمد باي الأول، وإقدام السلطة الاستعمارية على سن قانون التجنيس، قصد إخراج التونسيين المسلمين من حظيرة الإسلام. تقول الصواب «نحن بصفتنا مسلمين نحترم سائر العقائد والديانات لا نرى مانعا أو غضاضة في كرامتنا باشتغال الطوائف المسيحية بما يهم ديانتهم، غير أن لهذا التسامح وهذا التساهل حدودا لا ينبغي أن نتخطاها نحن.

فليس من اللياقة في شيء أن نحرض بعضنا بعضا لتعزيد عمل لا يهمننا ولا يتفق مع منازعنا الدينية. كما أنه من الخروج عن حدود اللياقة أن يطلب من أمير مسلم قبول الرئاسة الشرفية لمؤتمر مسيحي بحث» (53).

وهكذا فإن الإجماع يكاد يكون حاصلا حول إدانة ممثلي الإسلام الرسمي وأعيان الدولة، لعدم تشهيرهم بالمؤتمر، والإعلان صراحة بعدم الرضا، حتى الذين امتنعوا منهم عن الحضور في الاحتفالات الرسمية (54). وما حضور الاستقبالات الرسمية التي كان يعقدها المقيم العام للأساقفة الوافدين إلا دليل على تواطؤ هذه الشخصيات ومساندتها الكبيرة لإنجاح المؤتمر (55) خدمة لمصالحهم، وحفاظا على مناصبهم، في

(53) الصواب 31 جانفي 1930 المؤتمر الافخارستي وآراء الناس فيه.

(54) تذكر جريدة الوزير في 1930/5/29 أن الجناح المغالي من علماء الدين من شيوخ المجلس الشرعي وبعض صحافيي تونس المسلمين لم يحضروا المؤتمر.

(55) من الذين حضروا المائدة التي أقامها المقيم العام على شرف الوافدين الطيب باي والوزير الأكبر خليل بوحاجب ووزير القلم الهادي الاخوة وشيخ المدينة الشاذلي العقبي ومدير التشريفات وعامل الاحواز صلاح الدين البكوش وكاهية القسم الأهلي بالمجلس الكبير والطاهر بن عمار رئيس الحجرة الزراعية الأهلية الذي قال بالحرف الواحد: «إني أقبل بكل سرور إعطاء إسمي للجنة المؤتمر الشرفية».

حين أن الواجب الديني والوطني يدعوهم إلى مقاطعة مثل هذه الاستقبالات والولائم تضامنا مع الأمة التونسية، ومراعاة لمشاعرهم الدينية.

وإذا كان علماء الإسلام الرسميون لم يبد أغلبيهم أي احتراز من هذه التظاهرة الدينية، بدعوى التسامح الديني والظهور أمام السلط الاستعمارية بمظهر الدفاع عن الحرية الدينية. فإن أغلب المواطنين التونسيين عبروا من خلال الاجتماعات العامة المنعقدة في مختلف أحياء الحاضرة عن استنكارهم، ودعوا المسلمين إلى إعلان الجهاد في سبيل الله⁽⁵⁶⁾.

كما أغلق التجار دكاكينهم احتجاجا على انعقاد مثل ذلك المؤتمر في بلاد إسلامية،⁽⁵⁷⁾ وفي اليوم الذي تقرر أن تنزل فيه أول طائفة من الرهبان الوافدين إلى المؤتمر، أصبحت البلاد مضربة عن العمل وأضرب عمال الرصيف بتونس وبنزرت عن العمل أيضا، بحيث إن الوافدين فهموا ما أشيع من أن التونسيين ينتظرون قدومهم بسرور لأنهم قرأوا آية الغضب في اعتصاب عمال الرصيف الذي هو الخطوة الأولى من التراب التونسي،⁽⁵⁸⁾.

كما بادر طلبة جامع الزيتونة بالقيام برد فعل جماعي ضد المؤتمر، وذلك بعقد اجتماع في صحن الجامع بالاشتراك مع تلاميذ المدرسة الصادقية والمدرسة العلوية، قرروا فيه تنظيم مظاهرة أمام الإقامة العامة⁽⁵⁹⁾، ألقت السلطات الاستعمارية على إثرها القبض على أحد عشر طالبا خلال الاصطدامات التي حصلت بين المتظاهرين وقوات الأمن

(56) إثر تلك الاجتماعات القي القبض على الشيخ محمد كركر واسماعيل حفيظ. انظر المركز القومي الجامعي للتوثيق. السلسلة 33 - 25 الملف 2.7 : 855.

(57) العياشي (مختار) البينة الزيتونية 1910 - 1945 ط. دار تركي للنشر تعليق حمادي الساحلي ص 154.

(58) المجلة التاريخية المغربية، نفس المرجع ص 277.

(59) وثائق المركز القومي الجامعي للتوثيق نفس المرجع 858 - 854.

بساحة باب البحر⁽⁶⁰⁾، وهو ما جعل الطلبة يدخلون يوم 4 ماي 1930 في إضراب عام عن الدروس، لا في جامع الزيتونة فحسب بل في سائر المعاهد الثانوية الأخرى، والاستمرار في المشاركة في المظاهرات العامة، وإلقاء الخطب الحماسية في مساجد الحاضرة بحيث إن المجموعة الوطنية كلها قد اتحدت كلمتها على إفشال المؤتمر؛ لأنه يمثل في نظرها اعتداء على مقدسات الأمة وطعنا في كرامتها، هذا التضامن الذي تجلّى أثره في هذه الأعمال دفع بالسلطة الاستعمارية إلى اتخاذ كل الإجراءات لردع المتظاهرين، «إقامة حراسة عظيمة من الكومسارات والأعوان وبينهم السريون⁽⁶¹⁾، إلا أن هذه الإجراءات لم تفت في ساعد الطلبة على مواصلة احتجاجاتهم، حيث أعادوا الكرة، وقرروا تنظيم مظاهرات أخرى أمام الإقامة العامة للاحتجاج على اعتقال ثلاثة عشر طالبا⁽⁶²⁾.

ومن خلال سجل الشرف الذي أورده محيي الدين القليبي في خصوص المعتقلين من طلبة الزيتونة وغيرهم نجد أن نسبة مشاركتهم تتمثل 10 من 22 أما بقية الطلبة من المدارس الأخرى كالصادقية والعلوية والليسي كارنو فيمثلون خمسة طلبة أوقفوا ساعات معدودة، ثم وقع إطلاق سراحهم⁽⁶³⁾ ويمكن أن نستنتج من هذه الشهادة أن طلبة الزيتونة كانوا أكثر حماسا ودفاعا عن الذات الإسلامية التونسية، وهذا راجع في نظرنا إلى ثقافتهم الدينية التي غرست فيهم روح الشعور بالوطنية والدفاع عن مقومات الأمة؛ لأن الطلبة كانوا مؤهلين أكثر من غيرهم لمعرفة ما

(60) العياشي (مختار) نفس المرجع ص 154.

(61) الوزير 15 ماي 1930.

(62) كلف الطلبة المحامي الاشتراكي - دوران الجليلي للتقاضي مع الإقامة العامة، والدفاع عن أمانهم الموقوفين، بعد ما تخلى عنهم القادة الدستوريون أمثال محيي الدين القليبي والشاذلي خير الله وعمر بن قفصة والعربي مامي، بعد ما استقبلوا من طرف مدير الأمن. وثائق المركز القومي الجامعي للتوثيق. نفس المرجع 858.

(63) المجلة التاريخية المغربية، نفس العدد ص 295 - 296.

تهدف إليه السياسة الاستعمارية من خلال المحاولات التنصيرية. لذلك فإنهم يرون أن السكوت عن هذه المحاولات إنما هو الإخلال بالقيام بالواجب الديني والوطني من ناحية، وإخلاء السبيل إلى تسرب المسيحية وإضعاف الوازع الديني من نفوس التونسيين المسلمين من ناحية أخرى، وهذا ما يفسر لنا سبب اتخاذ العامل الديني كوسيلة لمقاومة الحركة التبشيرية في تونس، باعتبار أن الدين الإسلامي هو القاسم المشترك بين سكان البلاد إن لم نقل الشمال الإفريقي، وهو ما جعل الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بباريس يقفون متضامنين إلى جانب الشعب التونسي⁽⁶⁴⁾. مما يدل على أن القضية أخذت أبعادا أخرى، فلم تعد قضية الشعب التونسي فقط، وإنما أصبحت قضية المسلمين بصفة عامة⁽⁶⁵⁾.

وقد استغل الوطنيون التونسيون هذه الظاهرة لتنشيط الحركة الوطنية التي أصابها نوع من الفتور منذ 1926، فدعا الحزب الحر الدستوري باعتباره حزب الأمة الشامل لجميع طبقاتها والمعلن لمطالبها والمدافع عن كرامتها وحقوقها،⁽⁶⁶⁾ السكان إلى مقاطعة جميع الاحتفالات التي ستقام بمناسبة الخمسينية⁽⁶⁷⁾ وعقدت لذلك الاجتماعات العامة في المساجد والنوادي، فكان رجال الحزب يخطبون في كل ناد فاضحين السياسة الاستعمارية، ومشهرين بالأساليب اللإنسانية التي تتخذها إدارة الحماية لتنفيذ أغراضها، مما جعل السلط الاستعمارية تتوجس خيفة من نشاط الحزب، فأحاطت أنديته برقابة مشددة، ووضعت على قادته ورجاله العيون والأرصاد تتعقبهم وتراقبهم مراقبة دقيقة⁽⁶⁸⁾، كما بذل الحزب الدستوري جهودا كبيرة في سبيل إفشال المؤتمر، وذلك من خلال الرسائل التي بعث

(64) نفس المرجع : الاحتجاجات ص 280.

(65) نفس المرجع ص 281.

(66) نفس المرجع ص 276.

(67) المحجوبي (علي) الحركة الوطنية بين الحربين منشورات الجامعة التونسية 1986 : 89.

(68) نفس المرجع 281.

بها إلى كل من الباي ورجال الدولة الذين قبلوا عضوية الشرف، مذكرا إياهم بضرورة تضامنهم مع الأمة التونسية التي أعلنت عن عدم رضاها عن الأعمال الهدامة التي تقوم بها الكنيسة المسيحية في بلاد إسلامية، وتخليهم عن المشاركة في اللجنة الشرفية والهيئة المنظمة لأعمال المؤتمر «بناء على كون الصليبية وتنفيذ فكرة سان لوي - ليس الإعلان بهما من الحكمة ولا من آداب الضيافة في شيء خصوصا في بلاد مضى على الإسلام فيها أكثر من ثلاثة عشر قرنا⁽⁶⁹⁾، وما تجب ملاحظته هنا هو أن الدافع لمقاومة التونسيين لم يكن مبعثه التعصب للدين الإسلامي ومعاداة الأديان الأخرى كما يظن البعض، وإنما رد الفعل راجع إلى ما أظهرته السياسة الاستعمارية من تعاطف مع الكنيسة، ومد يد المساعدة إليها واستغلال الدين ورجاله، واستعمال القوة الروحية التي تمثلها المسيحية لتمكين المستعمرين من الوصول إلى أغراضهم في هدم الكيان الوطني التونسي هو الباعث الأول في الموضوع⁽⁷⁰⁾ فلو كانت المسألة مجرد احتفال ديني لا محل للسياسة فيه لهان الأمر، ولما أظهر التونسيون أي مقاومة؛ لأن الإسلام يقول بتعايش الأديان، ويدعو إلى احترام شعائر أهل الكتاب ما لم يظهروا العداء للمسلمين.

«ولقد كانت تونس الإسلامية تسعى منذ فجر دخولها في الإسلام إلى حماية الأقليات، ورعايتهم، والمحافظة على حقوقهم وصونها، والسعي إلى إدماج مجموعاتهم في المجتمع المدني التونسي⁽⁷¹⁾، ومنها الجالية المسيحية التي كانت تتمتع بحظوظ وافرة، وتحظى بكل أسباب الرعاية والحياة المطلقة خاصة من حيث ممارسة الشعائر الدينية، وهو ما أقرته

(69) انظر الرسالة كاملة في المجلة التاريخية المغربية، نفس العدد، ظاهرة مريبة بقلم محيي الدين القليبي ص 274 - 275.

(70) الفاسي (علال) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة الرسالة القاهرة 1948 ص 61.

(71) الهداية ص 15، ع 4 جانفي 1991. المظاهر القانونية للحرية الدينية في تونس بقلم محمود شمام ص 67.

المادة الرابعة من عهد الأمان التي تقول : «إن التونسي غير المسلم لا يجبر على تبديل دينه، ولا يمنع من إجراء ما يلزم ديانتَه، ولا تمتنن معابده، وله ما لنا، وعليه ما علينا».

كما جاء القانون الجنائي التونسي حاميا لحرية الأديان، وراذعا زاجرا كل من يقوم بالاعتداء على المعابد، أو التشويش على كل من يمارس شعائره الدينية سواء أكان مسلما أو غير مسلم⁽⁷²⁾.

ومما جاء في الفصل 165 من المجلة الجنائية : «كل من يتعرض لمباشرة الأمور الدينية أو الاحتفالات الدينية، أو يشير بها تشويشا، يعاقب بالسجن مدة ستة أشهر، وبخطية مالية، دون أن يمنع ذلك من عقابه بعقوبة أشد مما ذكر؛ لأجل هضم الجانب أو الضرب أو التهديد».

كما أن مجلة الإجراءات المدنية التونسية المعمول بها منذ القديم جاءت هي الأخرى حامية لشعائر الأقليات التونسية غير المسلمة؛ فقد جاء الفصل (291) مانعا إجراء أي عمل تنفيذي للأحكام في أيام الأعياد الوطنية الرسمية، وأضافت لذلك الفصل (292) الذي نص على أنه «لا يمكن إجراء أي عمل ضد المسيحيين يوم الأحد ويوم عيد الصعود واليوم الخامس عشر من أول عيد النزول ويوم أول نوفمبر واليوم الخامس والعشرين من ديسمبر عيد الميلاد». وقد حافظ الدستور التونسي الصادر في غرة جوان 1959 على هذه المبادئ الحامية لحرية الأديان، وضمن الأمن لكافة المتساكنين على اختلاف ألسنتهم وأديانهم⁽⁷³⁾.

ولكن ما تم في المؤتمر لم يكن مجرد إحياء شعائر دينية، ولم يكن الهدف منه رعاية الأقليات المسيحية، وإنما كان هدفه الأول ضرب الإسلام والمسلمين في الشمال الإفريقي عامة.

(72) المجلة الجنائية الفصل 165 ط 4 دار بوسلامة تونس ص 157.

(73) الفصل 5 من الدستور، الجمهورية التونسية تضمن حرية الفرد وحرية المعتقد وحماية حرية القيام بالشعائر الدينية.

ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعض الفرنسيين المعتدلين في مواقفهم يقفون إلى جانب التونسيين، من ذلك أن (م. بيار ميل) كتب فصلا بجريدة البتي متان (Le petit matin) نصح فيه صاحب الكنيسة الجديدة بإفريقيا (م. تونس) بالعدول عن فكرته المتطرفة. ودعاه إلى التماس الدعاية لدينه في غير الأوساط الإسلامية. كما نصح الحكومة الفرنسية، وحذرهما من مجازاة رجال المذهب الكاتوليكي. وإجابة مطالبهم المنحصر، في الإلحاح على الحكومة لتمد لهم يد المساعدة لفائدة مشروع تنصير إفريقيا الشمالية، كما أنحى باللائمة على أولئك الفرنسيين الذين يريدون التخلص من دين الجمهورية الفرنسية المستمد من بنود حقوق الرجال؛ وقد اتفق مع هذا النداء كثير من الفرنسيين الذين يرون بدورهم أن مثل هذه المحاولات إنما تضر بسمعة فرنسا بالدرجة الأولى.

نتائج مواقف التونسيين :

إن السلوك الذي سلكه التونسيون من قادة الحزب والطلبة ورجال الصحافة وعموم السكان كان له أثره الفعال في فشل المؤتمر؛ بفضل الاجتماعات المكثفة التي كان يعقدها رجال الحزب للتشهير بالسياسة الفرنسية، ودعوة عموم السكان إلى مقاطعة كل نشاط يرمي إلى دعم السياسة الاستعمارية وإنجاح المؤتمر الديني. والمظاهرات الاحتجاجية التي كان يقوم بها الطلبة والإضراب عن الدروس، كل هذه المواقف لتدل على الجؤ المكفهر الذي كانت تعيشه البلاد في تلك الفترة، كما تدل على عدم الرضا بما تمارسه الكنيسة بالتعاون مع السلطة.

وقد لمس القادمون للمؤتمر هذا الغضب البادي على الوجوه التي قابلتهم بالإضراب العام في ميناء حلق الوادي وبنزرت، ولم يصدقوا ما أشيع من أن التونسيين ينتظرون قدومهم بكل سرور⁽⁷⁴⁾، وذلك بالرغم عن المساعي والتدخلات التي قام بها أعيان الحاضرة مثل شيخ المدينة، وأعضاء الغرفة التجارية للتأثير على التجار والطلبة كي يقلعوا عن

(74) المجلة التاريخية : نفس العدد ص 277.

الإضراب، ويجعلوا حدًا للمظاهرات المتكررة، ولكن هذه التدخلات لم تزد المواطنين إلا إصراراً على التعبير عن الغضب بشتى الطرق، مما كان له أثر في تراجع الكثير عن حضور المؤتمر رغم الدعاية التي كانت تروجها الشركة المدنية المكلفة بالسهر على التظاهرة، من أن عدد الوافدين سيفوق الثلاثين ألفاً. وذلك قصد إغراء التجار لاستقبال الضيوف، ولكن ثبت بالإحصاء أن عدد الوافدين لم يبلغ إلا سبعة آلاف، وأن حضور هذا الجمع لا يؤدي أي خدمة للاقتصاد، ولم يدخل أي حركة على الأسواق؛ لأنهم حملوا معهم المؤونة، الشيء الذي عرض السلع المحلية إلى الكساد والانخفاض المفاجئ في الأسعار وخاصة المواد الضرورية منها، بحيث لم تزد الاحتفالات على ثلاثة أيام «جعل منها يوماً للاعتراف والثاني للغفران والثالث للتبريك، وألقيت الخطب العديدة من كبار رجال الكنيسة في هذه الأيام الثلاثة، ووضعت لسماعها آلات إبلاغ الصوت»⁽⁷⁵⁾.

كما كان للصحافة التونسية دور خلال ما كان يكتبه أصحابها من مقالات انتقادية وكشف لنوايا المؤتمرين، بما كتبه جريدة تونس الاشتراكية قولها: «هو علم اليهود وغيرهم أن هذا المؤتمر إن هو إلا حرب ضد الأديان الأخرى، ووسيلة للتصريح والإعلان بانتصار العقيدة الكاتوليكية وسيادتها على سائر العقائد، ولا يمكن أن يكون لدعوة القسيس للأمير المسلم الحاكم على هذه البلاد معنى آخر غير انحناء الهلال أمام الصليب»⁽⁷⁶⁾.

ولذا أصبحت مقاومة الاستعمار الفرنسي في نفس الوقت مقاومة لسياسة الكنيسة التبشيرية، ودفاعاً عن العقيدة الإسلامية وتحرير البلاد من هذا الثنائي المتعاون على ضرب الإسلام والمسلمين.

(75) نفس المرجع نفس المرجع ص 280.

La tunisie socialiste 1/4/30. (76)

ومع ذلك فإن السؤال يبقى مطروحا هل حققت السياسة التبشيرية في تونس غرضها ؟

بالنظر إلى الواقع العملي، ومن خلال شهادات رجال الكنيسة أنفسهم يتبين لنا أن جهود المبشرين قد منيت بفشل ذريع بالرغم من المحاولات العديدة التي بذلت قصد تنصير البلاد التونسية، وإخراج سكانها من حظيرة الإسلام إلى المسيحية، رغم كل هذا فإن التونسيين لم يتحولوا عن دينهم الإسلام، ولم يفرطوا في لغتهم القومية، وهذا دليل على تحذر الشعب التونسي في عقيدته الإسلامية والمحافظة على هويته العربية الإسلامية، وهو ما يدل في الآن نفسه على قصر نظر السياسة الفرنسية عندما حاولت بالتعاون مع الكنيسة فرض التنصير على التونسيين.

وشهادة الفرنسيين أنفسهم تؤكد هذا الفشل، فقد اعترف المستشرق «جاك بارك» الذي أعلن «أن عدد الجزائريين الذين اعتنقوا المسيحية في عهد لافيجري لم يبلغ الألف رغم الوسائل الكبرى التي سخرناها، ورغم مساندة النظام الاستعماري، واستغلال لافيجري لانتشار المجاعة والأوبئة في سبيل تحقيق أهدافه»⁽⁷⁷⁾.

فإذا كانت هذه المجهودات التي بُذِلَتْ في الجزائر لم تسفر عن نتيجة، حسب رأي جاك بارك،، بالرغم من اعتناق المسيحية ما يقارب الألف مواطن جزائري حسبما يدعيه، فإن الأمر في تونس عكس ذلك حيث لم يعتنق المسيحية أي تونسي⁽⁷⁸⁾. وفشل هذه السياسة سواء في تونس أو الجزائر إنما يعني فشلها في الشمال الإفريقي عموما، خاصة وأن الدعم الذي وجده المبشرون ببلاد الجزائر من السلطات الفرنسية لا يقاس بالنظر إلى الدعم المقدم لهم في تونس.

بحيث إنه يمكن أن نقول بأن العالم الإسلامي كله قد وقف ضد هذه المحاولات، وقد أكد هذا أحد شيوخ النصرانية في آخر مؤتمر عقده

J. Berque : Le Maghreb rentre deux guerres. Paris 1962; p. 231. (77)

(78) من جهتنا نرى فرقا بين اعتناق الجنسية الفرنسية وبين اعتناق الديانة المسيحية.

البروتستانت قبل الحرب العظمى في بيت المقدس بقوله : «لقد ضربت الدعوة إلى النصرانية في أنحاء كثيرة من الوطن الإسلامي، إن تجاربي تخولني أن أعلن بينكم على رؤوس الأشهاد أنّ الطريقة التي سرنا عليها إلى الآن توصلنا إلى الغاية التي ننشدها ... إننا لم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقا بنى دينه الجديد على أساس الهوى، أو نصابا سافلا لم يكن داخلا في دينه حتّى نعهده قد خرج منه بعد ذلك، ولا محلّ لديننا في قلبه حتّى نقول إنّه قد دخل فيه. ومع ذلك فالذين تنصروا لو يبيعوا بالمزاد لا يساوون ثمن أحذيتهم، فالذي نحاوله من نقل المسلمين إلى النصرانية هو أشبه منه بالحدّ، فلتكن عندنا الشجاعة الكافية لإعلان أن هذه المحاولة قد فشلت وأفشلت» (79).

كما لخص - زويمر - في المؤتمر التبشيري الذي عقد ببيت المقدس عام 1928 الأعمال التي قام بها المبشرون في مختلف مناطق العالم الإسلامي، وما آلت إليه السياسة التبشيرية من فشل قاتلا : «إنني أقركم على أن الذين دخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا أحد ثلاثة :

- 1 - إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام.
- 2 - أو رجل مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوت يومه، وقد استبد به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش.
- 3 - وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية» (80).

وهذا ما يؤكد أن المسلم الموحد المؤمن بعقيدة الإسلام عن اقتناع لا يمكن أن يتخلّى عن عقيدته وهذا ما جعل الحركة التبشيرية لم تجد لها

(79) مجلة المسلمون ع 10 نوفمبر شاعة الإلحاد هي بعض فنون التبشير بقل محب الدين الخطيب ص 30 - 41.

(80) شرف (عماد الدين) قانق عن التبشير ط. المختار الإسلامي، القاهرة ص 33.

مكانا في البيئة التونسية، مما جعل انعكاساتها سلبية، وما فشل المؤتمر الافخارستي إلا أكبر دليل على هذه السلبية.

وامام فشل كل المحاولات التي عمد إليها المبشرون لتمسيح المسلمين في الشمال الإفريقي عموما اقترحت الكنيسة طرح موضوع الحوار بين الأديان وخاصة بين المسيحية والإسلام؛ قصد تمرير الأفكار المسيحية بطريقة غير مباشرة، وقد اقترح البابا عند زيارته السنغال في شهر مارس 1982 ما يلي :

«كي يتم التآخي بين المسلمين والمسيحيين على رجال الدين أن يجعلوا علامة الصليب في رقابهم وعلى المسيحيين حمل الكتاب»⁽⁸¹⁾، وقد تحمس لفكرة الحوار هذه الكثير من دعاة المسيحية. يقول هنري نسلي مؤلف كتاب «حوار مع الإسلام»، مخاطبا المسلمين : «إن الغرب بإمكانه أن يقدم لكم شيئا آخر أحسن من ثقافته وأحسن من عبقريته للإبداع، يستطيع أن يقدم لكم مملكة المسيح»⁽⁸²⁾، على أن هذا الحوار يجب أن يكون مع مسلمين معينين وهم يدافعون عن الغرب، ويتبنون أفكارهم وثقافتهم، باعتبار أن الحوار مع علماء الإسلام لا يفيد شيئا، لأن الحوار لا يكون ناجحا في نظرهم إلا إذا خدم الكنيسة وأغراضها، وهو ما عبر عنه الأب قنواطي في اللقاء الإسلامي المسيحي الذي عقد بتونس سنة 1979 بنزل أميلكار بقوله :

«لسنا على استعداد كمسيحيين للتداول مع علماء المسلمين المتخرجين من الأزهر أو من الكلية الزيتونية أو من أية جامعة إسلامية، ونحن على استعداد لفتح الحوار مع المسلمين المتخرجين من الجامعات الأوروبية»⁽⁸³⁾، مما يدل على أن رجال الدين المسيحي لا يرغبون في الحوار الحقيقي

(81) وثائق مركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية بالجامعة التونسية، اللقاء الإسلامي بالجامعة التونسية، اللقاء الإسلامي المسيحي سنة 1979.

(82) الجنحاني (الحبيب) نفس المرجع ص 146.

(83) وثائق مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية.

والتعايش بين الأديان، وما الحوار في الحقيقة إلا دعاية تبشيرية في ثوب جديد.

وما يمكن أن نستنتجه هو التشابه القريب بين وجهات نظر المصلحين في معالجة قضية التبشير بالمسيحية والتصدي لها، وهذه المواقف الموحدة إنما تعود أساسا إلى عاملين هامين :

العامل الأول : ينبع من طبيعة الموضوع نفسه : إذ أن موضوع التبشير له صلة متينة بالدين، ويمس العقيدة الإسلامية التي يعتز بها كل مسلم تونسي، فالسكوت عن المحاولة التبشيرية إنما هو تواطؤ مع السياسة الاستعمارية ودعم مشاريعها بطريقة غير مباشرة.

العامل الثاني : شعور المصلحين التونسيين ومن ورائهم الجماهير الشعبية بالمسؤولية الملقة على عواتقهم، والمتمثلة أساسا في توعية الجماهير، وإيقاظ الأمة، حتى تكون على بينة من الخطر الصليبي الذي يتهدها.

وهذا ما يؤكد أن الموقف الشعبي من التبشير كان موقف الرفض والاستنكار : لأن الشعب كان يرى أن التصدي للبعثات التبشيرية واجب ديني بالدرجة الأولى لا يمكن القعود دونه.